

مسألة الصراع بين الفصحى والعامية

في الوطن المنقسم

لمحمد أديب السلاوي

الأول : أن يتخذوا الحروف الأفرنجية لكتابة الكلام العربي بدلا من الحروف العربية ، وذلك لضبط اللفظ في الكلمات المتشابهة ، والثاني استعمال اللغة العامية في الكتابة بدلا من اللغة الفصحى ، وحجته في هذا الطلب : أن الرجل الأفرنجي يصرف سنوات في درس اللغة العربية ثم هو لا يفهم اللغة التي يكتب بها كتابها اليوم ، ولا اللغة التي يتكلم بها قومها ، فضلا عن ذلك فإن الذين يفهمون لغة الكتابة اليوم من المصريين لا يتجاوزون (12) في المائة من السكان ، وأما باقي السكان وهو 88 بالمائة فإنهم لا يتعلمون لغة الكتابة ، وإذا وجب أن يتعلموها ليدرسوا بها اضطروا إلى صرف عدة سنوات في ممارستها ، فهل من الواجب وضع هذه العقبات في طريق تعليمهم أو تسهيل هذا التعليم لهم لتلقينهم الدروس بلغتهم ؟ ويقول المستر ويلمور أن اللغة العامية لغة مستقلة عن اللغة العربية ، وقد جاء عليها وقت كانت فيه لغة بأصول وقواعد ، فإذا جمعت أصولها وقواعدها صارت لغة سهلة عمومية لجميع أفراد الأمة خاصتها وعامتها .. »

ونفهم من كلام القاضي الإنجليزي أن هناك صعوبة يلاقيها الأجنبي في دراسة اللغة العربية .. ولا شك أن لاجل هذا بدأت الجامعات اللغوية والعلمية العربية تهتم بالموضوع جدياً وتخصص له حلقات في البحث .. ففي سنة 1947 ولاول مرة في تاريخ اللغة العربية ، أخذ المجمع اللغوي بالقاهرة يدرس اقتراح أحد الأعضاء الكتاب في موقف اللغة العامية من اللغة الفصحى .. بين فيه من وجهة نظر شخصية العوامل التي تؤدي إلى ذلك ، وذكر كيف نشأت العامية العربية من فصحاها وما نالها من تغير في

أضحت قضية الصراع بين الفصحى والعامية في لغة الضاد مشكلة قائمة على رأس مشاكل الثقافة العربية المعاصرة ، كما أضحت تشغل بال رجال الفكر العرب ، حيث أصبحت منذ بداية النهضة الحديثة موضع نقاش حاد بين حملة الاقلام على اختلاف ميولاتهم واتجاهاتهم الفكرية . كما بدأت تتسلل إلى معظم المؤتمرات العلمية والأدبية العربية غير أن معظم الدراسات التي جادت بها قرائح الباحثين العرب في هذا الموضوع لحد الآن ، لم تتوصل إلى موضع الداء ولم تخلص بعد إلى حل نهائي يطوي ملف القضية فأغلب هذه الدراسات يدور في حلقة مفرغة متارجحة بين نصر الفصحى ، ودم العامية أو العكس .

فالممتنع لقضية الفصحى والعامية في لغة الضاد لا بد أن يلاحظ بوضوح أن هناك اليوم في العالم العربي فئتين من الكتاب والباحثين والأدباء يناقشان مشكلة الفصحى والعامية ، الأولى تصور خطر العامية ، وتقول أنها السلاح الوحيد الذي تركه الاستعمار للقضاء على الوحدة العربية ، والثانية تهون كثيراً من قيمة الفصحى ، وتقول أنها لغة قديمة تتنافى مع روح العصر الذي نعيش فيه ، وتبقى المشكلة هكذا بين الأخذ والرد ، والدفاع والتغريص وإذا أردنا الرجوع إلى تاريخ نشوء هذا المشكل ، فسنجد أن مولده يرجع إلى تاريخ غير قريب ، حيث يشير إليه الأستاذ فرح أنطون في الفقرات التالية : (1)

« وضع جناب المستر ويلمور القاضي الإنجليزي في محكمة الاستئناف المختلطة كتاباً إنجليزياً في غاية الأهمية اقترح فيه على أبناء العربية أمرين :

(1) فرح أنطون حياته أدبه

الألفاظ وفي الأساليب ثم انتهى الي استخلاص الاحكام التالية :

(1) - أن أكثر الألفاظ العامية عربية أصابها التحريف في النطق للتخفيف والتيسير .

(2) - أن أسلوب العامية قد استقر على صورة نعوها الناس وهو يختلف عن الأسلوب العربي الصحيح .

(3) - أن العامية لا تزال تتطور ، وهذا التطور ناشئ من حياة الناس ، فهي وليدة الحياة نفسها ، وفيها من المرونة ما في الكائن الحي .

(4) - أن العامية ليست مسخا مجردا للفصحى وإنما هي لغة قائمة بذاتها لها قواعدها وأصولها فإذا شذ عنها شأن فكانه خرج عن طريقة مقررة .

ثم بعد ذلك دعا الباحث الى التقريب بين اللغتين فالقى على المجلس الاسئلة التالية :

- كيف يمكن التغلب على الصعوبة الكبرى ، وهي الاعراب ، وعلى الاخص في أواخر الكلمات ؟..

- الا يجوز أن يقبل في الفصحى غير ما يصح في لغة قريش ؟

هل نجعل الاصل منع ما لم يستعمل في الفصحى من قبل أم نجعله اجازة كل استعمال ما دام قائما في الحياة ؟.

- ألا يمكن أن نتجرد من التعصب لاساليب القدماء في الكتابة والكلام اذا كانت لا تعبر حقا عن احساسنا وتفكيرنا ؟

وقد ناقش المجمع بكل طواعية هذا الموضوع ، مناقشة طويلة ، ولا زال لحد الآن يناقش مواضيع أخرى مماثلة له ، الا أنه لم يأخذ فيه أي حكم لحد الآن ..

ومن هنا يتبين لنا أن قضية الازدواج اللغوي التي بدأت تفرض نفسها في كل الاتجاهات اللغوية العربية بأديها (القصة ، والمسرح ، والشعر ، والرواية) ولغتها (مجامعها ، وهيئاتها العلمية) وهذه القضية ليست وليدة تطور في الفكر العربي المعاصر كما يدعي ذلك البعض ، أو وليدة ظرف ، على العربية فيه أن تنتشر في أفان العالم كما يريد أن يزعم القاضي الانجليزي ، ولكنها وليدة الاستعمار الفكري الذي خلق مع الحملات الصليبية من جهة ، ومع قوة الغرب القاضية من جهة أخرى .

(2) راجع مجلة الحكمة عدد 8 (1955) .

والدليل الكبير الذي يؤكد هذه الحقيقة هو هذه الموجات من الدراسات المفرضة التي يقوم بها بعض المستشرقين الاجانب لنصر العامية ، وخلق فرقة بين أبناء الوطن العربي الواحد ، في كيانهم الذي هو اللسان الموحد ، ولكي يجعلوا من قضية اللهجات مشكلة قائمة في الحياة الفكرية العربية المعاصرة يشغل بها حملة الاقلام العرب نفوسهم حتى لا ينصرفوا الى قضاياهم المهمة المتجسمة في التطور الفكري والثقافي للبلاد العربية النامية ، وفي مخلفات الاستعمار الفكري على الخصوص الذي ما زال جاثما على فكر الكثير من مثقفينا العرب عاقاهم الله .

واننا امام هذا لا يفوتنا أن نمتدح لاختلقي هذه المشكلة بنجاحهم ، فقد أصبح الكثيرون ممن تقع على عاتقهم مسؤولية ارتقاء لغتهم يشغلون بالهم بهذه المشكلة ، كما أصبح في نفس الوقت للعامية أنصار كثيرون منتشرون في الارض يبحثون في الاجيال بالدعوة .. ومن هؤلاء الدكتور انيس فريحة الذي صرح أن اللغة العامية أصلح وأبقى في ميدان الحياة ، وقد جاء في رسالة له للدكتور عمر فروخ هذا التصريح واضحا حيث يقول : (2)

يحسن بي أن أجمل في نقاط وجهة نظري في هذا الموضوع الخطير :

(I) اللغة العربية الفصحى لهجة من لهجات العرب العديدة ارتقت الى مصاف اللغات الادبية بفضل نزول القرآن الكريم بها ، فهي مدينة بالبقاء له ومن الطبيعي أن تحرص الامة الناشئة ، أن يكون لها لغة قومية معترف بها ، فصيغت أحكامها وضبطت قواعدها فوقفت في صرفها ونحوها في نقطة معينة من الزمان والمكان ، أما لغة الناس التي لم تخضع لقوانين الصرفيين والنحويين فقد سارت مسيرها المحتوم متجزئة الى لهجات لان اللغة مجرى لا يعرف الجمود .

(2) - ولقد أبعدت الشقة بين الفصحى والعامية التي حد يبرر القول بأن العامية لغة قائمة بذاتها ، بصرفها ونحوها ومفرداتها واساليبها ، ذلك لان تيسير الحياة للعامية كان شديدا وغنيا ، فأصبح العرب من مزدوجي اللسان . وقد مر في هذا الطور قبلنا أم عديدة ، ولا تزال الى يومنا هذا أمم أخرى تعاني من ازدواجية اللغة ، ولكن

الاتجاه هو نحو الاعتراف بلغة واحدة هي لغة الحياة ، قد نستطيع أن ننسج حول اللغة ، ولكن السياج لا يقف في وجه الذبابة : الحياة ، الحياة تطلب اليسر وتكره العسر « يسروا ولا تعسروا »

(3) - الوضع اللغوي الامثل ان يكون لكل شعب لغة واحدة ، نحن نكره هذه الفوضى الضاربة في العالم العربي في لهجاته المتعددة المتباعدة وندعو الى لهجة توحد لساننا ، وانى ارى تباشير هذه اللهجة في لغة المثقفين العامية التى ليست فصيحة معربة ولا اقليمية ، بل هي اللغة العربية المحلية المشتركة بين المثقف المصري والعراقي والسوري واللبناني وغيرهم من العرب الذين انا ضمهم مجلس تحدثوا فيه بلغة بعيدة عن الفصحى ومترفعة عن الاقليمية ، هذه اللغة تنتظر اديبا مبدعا وشاعرا خلقا وقصاصا فنانا وصحفيا موهوبا لاسباغ صفة الاعتراف بهذه اللغة بفضل الفن والجمال في النتاج الادبي .

وجاء فى كتابه نحو عربية ميسرة ، الفقرات التالية :

« ان اللغة اكثر من فونيات ، واكثر من كلمات ، واكثر من تركيب ، اللغة حياة ، وهذه الحياة هي العنصر الانساني ، ان الفصحى ليست لغة الكلام ، فلا يرجى منها ان تعبر عن الحياة ، بحلاوتها ، ومرارتها ، وفنونها ولينها كما تستطيع العامية ، والدليل ظاهر ، فانك لا تستطيع ان تقول بالفصحى ما تقوله بالعامية ، واذا نقلته الى الفصحى اتى جافا قاسيا خلوا من العنصر الانساني اللطيف باللغة ، تصور على المسرح فلاحا يتكلم الفصحى او سكيراً يتكلم الفصحى ، او خادمة تخاطب سيدتها بالفصحى ، او نجيب حنكس يقص اقاصيصه الزحلاوية البرازيلية بلغة الزمخشري ، وسعيد فريجة في نكات يقصها بالفصحى او المجلات المصرية تنقل كلام ابن البلد الى الفصحى ..

ثم يقول في بحث آخر في نفس الكتاب :

ان اللغة العامية لغة قائمة بذاتها تختلف عن الفصحى في اصواتها وتركيبها ومفرداتها وتعبيراتها ، ويحق لنا ان نقول الآن ان للعرب لغتين فصحي معربة وهي اللغة الادبية الرسمية المعترف بها ، وعامية غير معترف بها ، وهي ان في نظر الناس لغة رديئة او انحطاط لغوي

ولكن رغم هذا الزعم الخاطيء فانها - العامية - لغة الحياة اليومية .. »

والاستاذ محمد تيمور هو ايضا خاض صراع العامية والفصحى ، فخصص فصلا طويلا من كتابه مشكلات اللغة العربية تحدث فيه عن العامية والفصحى ، وشرح نظريته قائلا : (3)

« هذه العامية اقدم من الفصحى عهدا ، وأغرق منها الى العروبة نسبا وفي مقدورنا لو اتاحت لنا كتابة العامية ان نقول باننا نكتب العربية ولا مرء .

لقد عاشت خصائص تلك العامية في العصور العربية الاولى اذ كانت لهجات مختلف القبائل والعشائر جرت عليها طبائع النشوء والارتقاء ومرت بها أطوار تنازع البقاء وعلى ترادف من الايام ويعون من عوامل وملابسات ، الفينا هذه اللهجات المتخالفة ، تتجمع وتختمر ، وتتخذ لها قالبا هو الذى سميناه الفصحى ، فكان هذا انقلاب صفة مختارة ، وصورة مزكاة ، ينطوي على النقاوة من خصائص اللغة به نزل القرآن ، وفيه صب الشاعر والناشر روائع البيان ..

ثم يقول الاستاذ تيمور في صفحات اخرى : (4)

« وان ساغ لكاتب متائق ان يترفع عن مشاكله العامة فيما يتناقلون من هذه الكلمات والتعبيرات على فرط الحاجة اليها وان يتجيد من كلمات الفصحى كل شريف أو كل طريف فالكاتب الروائي أو القصصي له شأن غير هذا الشأن ، وهدف غير ذلك الهدف ، اذ هو احوج ما يكون الى اصطناع كلمات وتعبيرات عامية في الوصف والتصوير ، وبخاصة في مساق الحوار ، فهي ذات دلالة تأثيرية خاصة في النداءات والادعية والاجوبة ، وفي الاعراب عن المشاعر والاحاسيس ، ولاسيما حين يدور الحوار بين مئات من الناس في المحيط الشعبي ، وحين تظهر شخصياتها على منصة المسرح في آريائها البلدية وفي هيئاتها المتميزة لكي تتناقل الحديث .. »

من هذا ، من تيريرات تيمور ، وفريجة يتبين للقارئ العاسي ان هذه المحاولات لا ترمي الى هدف غير التشكيك في فعالية اللغة العربية ، وكفاتها في مسابرة

(3) مشكلات اللغة العربية ص 88

(4) ص 231 من نفس المصدر

في هذا الموضوع فلسفى بالجواهر (5) ، وسنكون عاجزين عن أن نعدل الحياة بغير منطق الحياة ..

غير أن هذه الدعوة غير الخاضعة لمنطق الحياة لم تلق - كما يزعم (العاميون) - أي نجاح ، بل صادفت استنكارا شديدا من طرف المفكرين العرب الحرصين على التراث العربي ، وعلى الحضارة الانسانية التي حمل لواءها الاسلام قرونا طويلة ، ولقد وضخوا للرأي العام العربي في شهامة وريانة ما يختبئ وراء هذه الدعوة من اخطار ومؤامرات شيطانية تريد القضاء على حصيلة علمية عمرها آلاف السنوات .

وإذا أحسنا النية بهؤلاء (العاميين) ، وصدقنا بأنهم يريدون بالعالم العربي خيرا ، ويريدون للغة التقدم ، فكيف سنحلل عدم ادراكهم لحقيقة الاختلاف بين اللهجات العربية القائمة ، واستحالة التوفيق بينها ، وتوحيدها في لهجة واحدة خاضعة لمنطق النشوء والارتقاء ترضي مطالب الانسان العربي الحديث العلمية والادبية ، وتجعله قريبا الى العالم الغربي الذي هو مولد هذه الحضارة كما يقولون ؟.

إذا كانوا لم يدركوا هذه الحقيقة ، فلا بد أن نحكم عليهم بالجهل ، والامية ، أو بدعاة التفرقة العربية .

ثم ان بعض هؤلاء اذا كانوا يجروون فيضعون أنفسهم في مقدمة من يطالب بالتقريب بين الفصحى والعامية ، فاننا نؤكد لهم مع الأستاذ المرحوم عباس محمود العقاد :

« بأن التقريب بين الفصحى والعامية ممكن ، وأنه يزداد امكانا في العصر الحاضر لان أسباب التشعب والتفريع كانت موفرة في العصور الماضية ، ولم تكن بجانبها أسباب للتوحيد والتقريب ، فتوافرت هذه الاسباب في العصر الحاضر بعد شيوع وسائل الاعلام »

كما نؤكد مع الأستاذ العقاد في أن هذا التقريب يجب أن يكون لعالم الفصحى :

« وأن يكون لتيسير فهم الفصحى لغير المتعلمين ، وأن يدخل من زاويته في الفصحى مفردات نافعة من ألفاظ

العصر العلمي الحديث ، فالاول وصفها بلغة أدبية خالصة ، ومعنى هذا أنها لا تستطيع مسايرة البحوث الجديدة في العلوم الطبيعية والفضائية . والثاني رماها بالقصور ، وهذا في الحقيقة ما يثير الضحك ، فلا أحد يتصور أن لغة عمرت قرونا طويلة ، وحملت حضارات على اكتافها للشرق والغرب لا تستطيع مسايرة عصر علمي لا يقل عنه عصر الحضارة الاندلسية متانة ، وقوة ، وعلما .

ولكن مع ذلك ، فإن الحقيقة حين تواجهنا ، فلا بد أن نقول ان هذا الموضوع وان لم يكن للاستعمار الغربي يد في انماه ، وانكائه ، فمن الطبيعي أن يثار في هذه الظروف المرحلية التي تجتازها البلاد العربية اليوم ، وهي ظروف كما يعلم الجميع ، يجتاز فيها الانسان العربي امتحانا عسيرا يختار فيه الموقف الطبيعي لحياته (الشرق أو الغرب) .

واعتقد - بكل تواضع - أن الذين اختاروا العامية ونصروها ، قد اختاروا قبل الغرب ، مجتمعه ، وروحه وتنصلوا في نفس الوقت للعربية ، لأهمهم ، وليس من الغرابة أن نجد للوطن العربي عاقين .

فان نكر أسماء الذين عالجوا هذه القضية سوف يملا كتابنا ضخما بل مجلدا ضخما ، ولا أريد ذلك لانهم كثر ، وحجتهم في صلاحية العامية هي أنها أقرب الى الحياة ، وأصدق للتعبير عن عقوليتها .. ولكن ما من أحد من هؤلاء الذين نكرنا أسماءهم ، ونصوص كتابتهم ، ولا الذين لم نذكرهم تجاوز البحث النظري السلبي الى تطبيق هذا القول .

واعتقد أن الذين نصروا العامية ، هم أنفسهم لا يستطيعون الكتابة بها ، اذا استثنينا الأستاذ سعيد عقل الذي تجرأ وقدم ديوان (جنانار يبحث عن الجمال) بالعامية اللبنانية لم تجد أميبا آخر ..

والواقع أن البحث في هذه القضية يتجاوز بكثير نطاق اللغة ، والصرف والنحو ، والحرف والبيان ، ويتجاوز النظريات السلبيية ، ويدخل في نطاق أكثر قيمة وموضوعية . نطاق الفلسفة ، والمؤسف أن الذين يتناولون هذا الموضوع لا ينظرون فلسفيا الى أمر اللغة ، خاصة وأنه يتكلمون عن انقلاب جذري لوضع اللغة ، ان البحث

الحضارة يمكن إجراؤها مجرى المفردات الفصيحة بغير تعديل ، أو ببعض التعديل « (6) -

فالحقيقة القائمة أمامنا اليوم ، وأكثر من أي وقت مضى ، هي أن باللغة العربية اليوم عجزا عن تأدية الأغراض العلمية ، وقد استرعى هذا السبب اهتمام أدباء العصر ، فبحثوه ، ودرسوه ، ولكن هذا السبب غير كاف لهجر لغة لها من الماضي ما تحسد عليه ، فاللغات الغربية - الفرنسية الانجليزية الالمانية - أصبحت هي أيضا عاجزة اليوم عن تأدية الأغراض العلمية المتلاحقة ، ثم إن العامية التي تشكل مجموعة لهجات اقليمية ، ليس لها أن تؤدى حتى الأغراض الأدبية بالنسبة لشعوب العالم العربي الحديثة الواعية ، لاسيما ثقافة العلوم التي لا تستغنى عن لغة خاصة المفروض فيها طول زمنها وامتداد مكانها وتعاقب أجيالها .

وإذا كانت لغتنا العربية تحتاج الى بعض التعديل فليس معنى هذا ، أنها أصبحت كاللغة اللاتينية الميتة ، وأضحى اللجوء الى العامية واجبا ، بل بالعكس .

« فاللهجة الشعبية بطبيعتها لهجة موقوتة متفرقة موكلة بمطالب المعيشة اليومية ، لا تيسر للعالم أن يكتب بها علومه ومعارفه ، وليس معقولا أن يتعلم الشعب كل شيء الا أداة الفهم والتفاهم ، ويبدو لنا أن التجربة العلمية خير محك لهذه الدعوة ، فمن استطاع أن يوحد بين العلم ولهجة السوق ، فقد يستطيع أن يحل هذه المشكلة على وجه قويم (7) »

وإذا كان من المستحيل أن يوجد هذا العبقري الذي يستطيع أن يخلق المصطلحات العلمية من لهجة السوق والمعيشة ، فاترك الكلام في هذا الموضوع للدكتور طه حسين حيث يقول : (8)

« أحب أن ألفت نظر أدبائنا الذين يطالبون بالالتجاء الى اللهجات العامية الى شيء خطير ما أرى أنهم قد فكروا فيه فاحسنوا التفكير

هو أن العالم العربي الآن ، وكثيرا من أهل العالم الشرقى كله يفهم العربية الفصحى ويتخذها وسيلة

للتعبير عن ذات نفسه ، وللتواصل الصحيح القوي بين أقطاره المتباعدة ، فلنحذر أن نشجع الكتابة باللهجات العامية فيمعن كل قطر في لهجته ، وتمعن هذه اللهجات في التباعد والتدابير ، ويأتى يوم يحتاج فيه المصري الى أن يترجم الى لهجته كتب السوريين واللبنانيين والعراقيين ، ويحتاج أهل سوريا ولبنان والعراق الى مثل ما يحتاج اليه المصريون من ترجمة الكتب المصرية الى لهجاتهم كما يترجم الفرنسيون عن الايطاليين والاسبانيين ، وكما يترجم هؤلاء عن الفرنسيين .

ولنسأل أنفسنا آخر الأمر أيهما خير أن تكون للعالم العربي كله لغة واحدة هي اللغة الفصحى ، يفهمها أهل مراكش ، كما يفهمها أهل العراق أم أن تكون لهذا العالم لغات بعدد الأقطار التي تأتلف منها ، وأن يترجمه بعضه عن بعض ، كما يترجم بعض الأوروبيين عن بعض ؟ أما أنا فأؤثر وحدة اللغة هذه خليفة بأن يجاهد في سبيلها المؤمنون بها ، وبأن يضحوا في سبيلها بكل ما يملكون»

هذا كلام عميد الأدب العربي ، ورجل فاضل تيلسوف حكيم ، يرى الامور من جذورها .. ويحكم على الأشياء من زاوية واقعها ..

واننا إذ نترك هذا الكلام دون أي تعليق فلأنه يحمل كل المعاني الواجب التعبير عنها في الانفصال الذي يعمل لاجله دعاة العامية .

- 2 -

ليس هناك من يزعم أن اللغة العامية تعانى عقما جوهريا في أداء المعاني الحضارية أو التعبير عن دقائق الفكر ، بل أنها إذا عمرت مدة طويلة في ميدان التعبير الكلي تصير قادرة على خوض المعركة والوفاء بما يخالف الانسان من عواطف وأفكار ، ولكن هذه الحقيقة نجدها تشمل اللغة العربية الفصيحة من الآن بل ونجد هذه اللغة قادرة على أداء كثير من المعاني الخالدة التي لم ينل منها الزمن ، والتي لن تتمكن العامية مدى الحياة من بلوغ مكانها. ثم لعلنا بشكرانا من الفصحى نحمل اللغات ذنبا يجب أن نجعله في الواقع الى تأخرنا في الميدان الثقافي والتربوي .. فإذا كانت الفصحى لا تتفق حقا مع الواقع الشعبي

(6) عباس محمود العقاد في المصدر السابق
(7) العدد الاول من مجلة الحصاد لسنة 1955

الذي ينبغي للادب أن يصوره ، كما ذكر ذلك أنصار العامية وهم كثيرون ، فإن ذلك راجع الى الثقافة الشعبية المنحصرة في سجن ضيق لا نور فيه ، ولا هواء ..

ولنرجع الى الموضوع : .. ونسأل هل القضاء على الفصحى ، واستعمال العامية سيحل المشكلة ؟. ان المشكلة على ما يظهر ، وكما يطرحها أصحاب النظر والرأي أنصار العامية ، تكمن في كون الفصحى لا تفي بالغرض ، ولا يمكن لها ان تكون التمييز-الصادق عن خوالج الفلاح والعامل والتاجر والانسان الذي هو خارج قاعة المدرس .

فأنيس فريحة مثلا ، لا يتصور كيف يمكن لكاتب اديب أن يخلق حوارا مسرحيا بين الفلاح والعامل بلغة عربية فصيحة ، وله الحق أن يتصور ذلك ، ولكن هل العامية ستحل المشكلة ؟

ولنفرض ان العامية ، واستعمالها ادبيا ، سيحل المشكلة فهل يمكنها ان تحل محل الفصحى علميا ؟ هل يسع قاموس العامية ، اذا كان لها قاموس ، مصطلحات قانونية وادارية وفيزيائية وكيميائية وقضائية وذرية الخ ..؟ ان العامية حتى في الميدان الادبي لا يمكنها ان تحل محل العربية ، وهذا ما يمكن للزملاء انصار العامية ان يشعروا به عند التطبيق .

ثم هل لا تتنازع .. مصر ولبنان والمغرب وتونس والجزائر حول ابي عامية اصلح وأوفى وبأية واحدة من العاميات يجب أن نكتب ؟ لابد لواحدة من أن تظفي في آخر الأمر على الأخرى ، فتصبح بدورها لغة موحدة إذ التوحيد ضروري في اللسان .. وألا يبقى النزاع من أجل البقاء وينشأ عن ذلك قطع الصلة بالماضي العربي المشترك وينتج عن ذلك أيضا تطور اللهجات الاقليمية السنى سيضعف الشعور بالوحدة والاتجاه والقومية مع أن تلك الوحدة لا تقتصر في الفكر العربي على كونها غاية بل أصبح على الانسان العربي اعتقادها اعتقادا مذهبيا .

ولنذهب الى أكثر من هذا وأبعد منه لنرني المشكل من حيث الفلسفة يقول كمال يوسف الحاج : ان خطا الذين يبشرون بالعامية ناتج عن أنهم يميزون - في الطبيعة لا في الدرجة - بين انفكر واللغة على أنهم يعتبرون اللغة وسيلة

لا غاية ، أنهم ينظرون اليها كشكل خارجي فقط ، يمكن استبداله بشكل آخر ، على أنهم يقولون بأن اللغة غلاف للمعاني لا يربطه بمضمون الرسالة شيء من الداخل ، وما لنا الا أن نفتح كتاب أنيس فريحة (نحو عربية ميسرة لنقرأ ما يأتي : (9)

« كثيرا ما تثار قضية وجود فكر مجرد بدون لغة أو رموز ، وقد تثار القضية بشكل آخر : اليس الفكر واللغة وجهين ، أو مظهرين لعملية بيولوجية واحدة ؟ وأكثر ما تثار هذه القضية في حقول المنطق والفلسفة والبيولوجيا ، وللعلماء فيها آراء مختلفة وأحيانا متناقضة وما يدعو الى هذا الخلاف والتناقض في الرأي ، حرص المشتغلين بحل هذه القضية على ايجاد جواب حاسم ، نعم هناك فكر مجرد بدون رموز ، أو ليس هناك فكر مجرد بدون رموز ، وظاهر الى وقتنا هذا ، ان المسألة لا تتحمل الجزم سلبا أو ايجابا ، فان كثيرا من الكلام لا يدخل في نطاق الفكر ، كما نفهم اللفظة بمدلولها العام ، فأننى عندما أقول ، نمت الليلة نوما هادئا ، فأننى لا أعبر عن الفكر انما هو رد فعل بسيط لحالة جسمية شعرت بها ، فكان اللغة مولد كهربائى ضخ يمكن استخدامه لتحريك آلات ضخمة أو لتحريك ضرابة يرسخها الاختيار في العقل ، فعندما نقول الجملة التي لفظة تشبه (كبسولا) يتضمن فكرة أو صورة ذهنية جرس كهربائى صغير .

الواقع هو أن مفردات اللغة ترمز الى فكر ، كل استشهدت بها سالفاً (نمت) فانها ترمز الى ما حدث أو فعل يعرفه الآخرون بالاختبار ، وليس من الضروري أن نفسر النوم وعملية النوم ، وعندما نقول الليلة فانها تنقل الى السامع فكرة أو صورة معينة ، وكذلك عند قولنا « نوما هادئا » ، فمن هذه الجهة نجد ان جميع الفكر أو الصور الحسية والمعنوية مضمنة في مفردات اللغة ، ولكن هذا لا يعنى أنه لا يمكن ان يكون هناك فكر وصور وحقائق في الكون وفي الحياة مجردة عن اللغة ، أو ليست متلبسة برمز أي بصوت لغوي .. »

على الرغم من تصريح المؤلف بأن المسألة لم يبت فيها العلم، سلبا أو ايجاباً (بطريقة جازمة) الى وقتنا الحاضر ، فقد اتخذ موقفا صريحا من القضية ، هو

(9) عن كتابه فلسفيات فصل في اللغة

والغير المثقف بها .. وهذا دليل آخر يبطل هذه الدعوى المزيفة ..

وهذه الحقائق قد سجلها الذين يكتبون بالعامية انفسهم ، فناخذ مثلا حيا وهو أمير الزجل « رشيد نخلة » الذي يمتاز بفن الزجل وحلق بأجوائه العالمة على القديم والحديث ، يقول هو نفسه في هذه الحقيقة ما يأتي :

« بقي شيء آخر أرى التبسط فيه ، اليوم ، لزاما علي ، وهو ما يقوم بالأذهان من الزجل بمثابة حرب على الفصحى ، فاستغفر الله ألف مرة !! ما كان الزجل في الأندلس أمس ولا في مصر ولبنان اليوم ليزج بنفسه هذه الزجة فنمى الزجل فخره ، كله في أن يرى وجهه في زاوية من مرآة الفصحى ، ويكون عليه شيء من روعتها ، وبناء من طلاوة الفاظها ، وحلاوة حواشيتها ، ولباقة الاخذ بين خافيتها وباديتها ! والعربية حين يقال : (ان الشاعر الزجلى يخرج فكرته ، وهي بعد حامية طلاقة كما تمخضت بها قريحته ..) فحاسنها لا تعد وحسانتها الى صاحبها الا بالفصحى ، واذا كانت هذه حسنة الزجل ، فما ترى يقال في حسنات الفصحى الى الشاعر ، وعنده منها كفتا ميزان العرب ، البلاغة والفصاحة ، فالزجل اذن عيال على العربية ، ومن قديم الزمن الى اليوم ، فضلا عن كونها لسان الامة ، والزجل لسان طوائف منها يوم تترك فصاحتها بعض الحين ، وتقبل على عاميتها ! وانى ما اخترت العامية بدلا من الفصحى ، بل ارانى أقبل على العامية حين أترك الفصحى وأقبل على الفصحى حين أقبل على العامية (11) .

وقد نعتبر هنا موقفا صريحا اتخذته العامية من الفصحى ومن الذين يريدون استبدالها بالعامية . ويمكن القول بعد هذا ، لا خوف على اللغة من هؤلاء اذا عملوا على محاربتهم للفصحى ، هي محاربة لناموس طبيعي صرف ، وهذا الناموس هو ضدهم على طول انخط كما يقولون في هذه القضية ..

ان الثنائية ناموس طبيعي تعترى كل الشعوب .. وان اللغة الفرنسية التي يتكلم بها الشعب الفرنسي غير الفرنسية التي يكتب بها جان بول سارتر أو كامو أو فاليري .. واللغة الالمانية التي يتكلمها الالمان غير التي

التسليم بأن اللفظة كبسول تتضمن الفكرة دون أن تكون الفكرة هناك على زعمه ، فكرة مجردة عن اللغة ، ظاهر ان مثل هذا القول يعنى أن اللغة وسيلة ، وما دامت اللغة وسيلة ابي ما دامت اللفظة كبسولا ، فما الذى يمنع من أن تتصرف بالكبسول كما نشاء « (10) .

والقدماء انفسهم استعملوا هذا الكبسول الذى عبر عنه كل من فريجة وكمال الحاج وتصرفوا في اللغة ، وخلقوا من ذلك ما يسمى بالادب العامي .. وهو الذى كان يعبر عن الامازيج الشعبية والاساطير وغيرها .

واذا ما رجعنا الى الادب الشعبي هنا في المغرب مثلا ، وهو يعبر عنه جملة واحدة بالفلكلور ، فاننا نجده بأصوله الفكرية ، واللغوية متأثر بالادب العربي الفصيح ، ولا ابلنا على ذلك من عروضه الشعري وموازينه الفصيحة ثم تعبيراته التي تكون غالبا مستمدة من المعاني الشعرية العربية .

ودليل آخر ، من هنا في المغرب ، وهو ذلك القاموس الذى جمعه الاستاذ عبد العزيز بنعبد الله الذى يضم آلاف الالفاظ العامية المغربية ذات الاصول العربية والتي هي الدليل الوحيد عن عدمية اللغة العامية ، لانها لا تعتبر الا فرعا بسيطا من اللغة العربية الفصيحة .

ومن المؤكد ان الادب العامي نشأ في كافة الاقطار العربية .. وكل قطر عربى اتخذ من هذا الادب اسلوبا خاصا للتعبير .. ولكن احدا لم يخش على العربية الفصحى من هذا وذلك يرجع الى أسباب كثيرة :

(1) ان العامية بالرغم أنها ارتقت الى درجة صارت فيها لغة الاسواق فانها لم تزدد بعد على أن تكون وسيلة للتعبير الساذج والاحاسيس البدائية ، ولم يظهر فيها لحد الآن ، ومنذ نشوئها النوايح الذين ظهوروا باللغة العربية .

(2) ان انصار العامية يقولون ان العربية صارت كاللغة اللاتينية ، ولذلك يجب مجرها الى ابينتها العامية ، الا ان الواقع يقر أن الفارق بين العامية والفصحى لم يبلغ شيئا كما بلغ بين اللغات الاروپية الدارجة وبين اللاتينية من الفارق ، فما زال التفاهم ممكنا .. بل ان التفاهم زاد أكثر من أي وقت مضى بين المثقف بالعربية

(10) نفس المصدر

(11) راجع كتاب معنى رشيد نخلة

محل الفصحى في الكتابة بغير النزول الى منطق الحياة الطبيعي ، ينظرون الى القضية .. كما ينظرون الى المسألة الحسابية .. العامة تتكلم بها .. يجب أن نكتب بها أيضا ، ولكن يجب أن يعلم هؤلاء أن القومية أكثر بكثير من العملية الحسابية المفتعلة وأكثر من لغة نستلمها أو نستقيحها .. القومية اندفاع كلي والذي يربطنا بصفة تسلسلية وطبيعية بحاضرنا .. الى الباطن العضوي الذي يربطنا بالخارج الحياتي .. ان القومية هي هذا التاريخ الذي لا نشاهده في باطننا ، ولا أحد يستطيع نزغنا من العروبة . ثم بعد هذا نحن وتاريخنا بعد هذا هو العربية فنحن عرب أولا وأخيرا .. لسنا أحرارا في اختيار امتنا ، (12) ، قد نكون أحرارا أن نذود عنها .. وهذا نفسه عائد الى مقدار وعينا القومي .. ولكننا لسنا أحرارا في اختيار شعورنا القومي والتصرف به كما نشاء ونرضى أو كما تشاء ارادتنا الفريدة ، فشعورنا القومي موجود معنا والذين يحيون عنه لا شك أنهم شوان .. والشوان لا حكم عليهم .

وأقولها صراحة أن الذين حادوا عن الشعور القومي، والذين تصرفوا كما شامت لهم خواطرهم في اختيار اللغة، هم مجموعة من الشوان سوف يعودون الى رشدهم بعد حين ، بعد أن يعلموا أن اللغة العربية ملتصقة بالارض التي يعيشون عليها وبعد أن يتيقنوا أن التنكر لها هو تنكر لتاريخ أجدادهم وآبائهم إذ لا أحد يجزئ على التنكر لموطنه ذلك التنكر الذي يتجلى في محاولة فصل اللغة عن القومية .. ومن رأي ذلك فانه خاطيء الى يوم الدين ..

ولكن لكي لا نظلم الفصحى هي أيضا .. وتنتمي على العامة من جهة أخرى وجب علينا أن نشير الى أن تبسيط اللغة العربية شيء حيوي ضروري به يمكن ضمان حياة الفصحى ، وحياة القومية .

على كتابنا استعمال المانوس والمالوف من الالفاظ القريبة الى أذهان الطبقات الشعبية ، والابتعاد عن المهجور والنابي من الكلام الذي يحتاج فيه السامع أو القارئ الى كتاب العين لخليل .. ولسان العرب لابن منظور ، والصحاح للجوهري .. وفي التبسيط ، أحسن الحلول لهذه القضية ، لان فيه ارتقاء العامة وتسهيل الفصحى .

الرباط - محمد اديب السلاوي
رئيس مصلحة النشر والاعلام
بالمكتب الدائم للتعريب

يكتب بها الالمان .. فالثنائية تعترى كل لغة في العالم ، هي احى المعطيات البدئية في حياة الشعوب ، ولا تعد أمة من الامم في مستوى راق من الحضارة ، الا اذا نهضت بلغة القول والكتابة معا الى درجة راقية .. أي الى درجة الفصحى ..

إن الذي يخصنا ، هو أن نيسط لغتنا الفصحى ، قليلا ، وبهذا سترتفع لغة عاميتنا الى الفصحى ، وتحل المشكلة من جذورها .

وقضية تبسيط العربية قد تناولها المكتب الدائم للتعريب التابع للجامعة العربية بالرباط ، ودعا لها بكل وسائله موجها الدعوة للاسهام فيها لكل الادباء والمفكرين العرب .

- 3 -

يبقى بعد هذا أن نبحث المشكلة من حيث القومية .. وهذا جانب من الجوانب التي لم يتطرق اليه الباحثون في المشكل من حيث هو .. كمشكل قائم الذات .

ان العالم العربي اليوم المختلف اللهجات يجرى وراء قيام وحدة قومية جديدة ، ويسمى وراء توحيد المناهج السياسية والتربوية والاجتماعية ، ويسمى للقضاء على المخلفات الاستعمارية القديمة والحديثة .. يسمى في سبيل الوحدة القومية عن طريق المؤتمرات والهيئات والبعثات والجامع اللغوية والعالمية ، وغيرها .. والدعوة الى العامة هذه لاشك سيكون لها اثرها الفعال في شعورية الاقطار العربية .. وفك هذا الرباط الوحدوي - الفصحى - التي منها تنطلق الدعوات للوحدة وللقومية ..

ان اللغة من العوامل الاساسية في بناء القوميات ، ولا اقصد باللغة صرفها ونحوها بل اللغة التي تنتقل بها تلك النظرة الفلسفية اللاواعية من السلف الى الخلف عبر الزمان الدائم، وهي حافظة التاريخ من الدمار والفاء. وهي التي تخزن كنوزه ، هذه اللغة هي منوام البناء القومي ولغة تاريخنا .. ولغة أطفالنا التي يتعلمونها في المدرسة ، والتي تنقلنا من السلف الى الخلف هي العربية .. فكيف يمكن لنا الاستغناء عنها أو استبدالها بالعامة ؟ .. ان القومية ليست مجرد علاقة بين انسان وانسان آخر ، وليست عملا تركيبيا بشكل اعتباطي ، يمكن الاستغناء عنه متى شاء الخاطر ، بل انها جبرية حياتية تبتدىء مع الانسان في المهد وتنتهي معه في اللحد .. فالذين ينادون بانقلاب جذري .. باستعمال العامة

(12) كمال يوسف الحاج في القومية والانسانية